دلالة إحضار الغائب في النّصّ القرآنيّ دراسة في تفسير الميزان

د. إياد محمد علي الأرناؤوطي
كلية التربية ابن رشد/ جامعة بغداد

مقدمة

أعني بـ (إحضار الغائب) بعض ما درسه البلاغيّون في باب الالتفات، فقد أجمعت المعجمات العربيّة على أنّ (لفت) فعل متعدّ بنفسه بمعنى: لوى[١]، ومن هذه الدّلالة الحسيّة جاءت الدّلالة المعنويّة، أو المجاز، فيقال: لفته عن رأيه، أي: صرفه عنه، وأشار الخليل إلى أنّ (اللفت)، و (الفتل) بمعنى واحد[٢]، في حين أشار ابن فارس إلى أنّ " اللام والفاء والتاء كلّمة واحدة تدلّ على: الليّ، وصرف الشّيء عن جهته المستقيمة"[٣].

ومن هذا المعنى اللغويّ جاء المعنى الاصطلاحيّ فالالتفات تحوّل أسلوبيّ، إلا أنّ الدّارسين اختلفوا في تحديد مجاله، فقصره جمهورهم على المخالفة بين الضّمائر من التّكلّم إلى الغيبة، ومن التّكلّم إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى التّكلّم، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التّكلّم، ومن الغيبة إلى الخطاب، في حين اتّسع فيه آخرون، كابن الأثير ليشمل تحوّلات أسلوبيّة أخرى، كالتّحوّل في الصّيغ، ومنها صيغ الأفعال[٤]، وتابعه يحيى بن حمزة العلويّ، الذي عرّف الالتفات بأنّه: "العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب مخالف للأوّل"[٥].

يشمل إحضار الغائب التّحوّل من الغيبة إلى التّكلّم أو الخطاب، وهو من الالتفات بإجماع الدارسين.

سأتتبع دلالة إحضار الغائب في النّصّ القرآنيّ في تفسير الميزان للعلامة الطّباطبائيّ على وفق منهج انتقاء نماذج مختارة للظّاهرة في الآيات الكريمة.

معالم الوقوف

من أبرز معالم وقوف العلاّمة الطّباطبائيّ على ظاهرة إحضار الغائب في النّصّ القرآني ما يأتي:

١. عنايته بحال المتكلّم، فعند تحليلنا لأيّ نصّ لغويّ لا بدّ من استحضار العناصر الثّلاثة في الحدث اللغويّ: المرسل، والرّسالة، والمتلقّي، وقد واجه الدّرس البلاغيّ القرآنيّ حرجًا شديدًا في دراسة النّصّ القرآنيّ بالنّسبة إلى المتكلّم (الله I)، فكان الاتكاء على ارتباط النّصّ بمتلقيه[٦]، إلا أنّنا نواجه عناية فريدة للعلاّمة الطّباطبائيّ بحال المتكلّم يتخلّص فيها من أسر قداسته سبحانه تارة بتمثيل مقامه بمقام متكلّم من البشر، ففي تفسير قوله سبحانه: **(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ* أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل:٥٩.٦٠)**. قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "ومعنى الآيّة: بل **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم** اي لنفعكم **مِّنَ السَّمَاءِ** وهي جهة العلو **مَاء** وهو المطر **فَأَنبَتْنَا بِهِ** اي بذلك الماء بساتين **ذَاتَ بَهْجَةٍ** ونضارة، **مَّا كَانَ لَكُمْ** اي لا تملكون وليس في قدرتكم **أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ** آخر **مَّعَ اللَّهِ** سبحانه – وهو إنكار وتوبيخ. **وفي الآيّة التفات من الغيبة إلى الخطاب بالنسبة إلى[٧] المشركين، والنّكتة فيه تشديد التّوبيخ بتبديل الغيبة حضورًا، فإنّ مقام الآيات السّابقة على هذه الآيّة مقام التّكلّم ممّن يخاطب أحد خواصّه بحضرة من عبيده المتمرّدين المعرضين عن عبوديّته، يبثّ إليه الشّكوى وهو يسمعهم حتّى إذا تمّت الحجّة، وقامت البينة كما في قوله: " آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ " هاج به الوجد والأسف، فتوجّه إليهم بعد الإعراض، فأخذ في حملهم على الإقرار بالحقّ بذكر آيّة بعد آيّة، وإنكار شركهم وتوبيخهم عليه بعدولهم عنه إلى غيره، وعدم علم أكثرهم، وقلّة تذكّرهم مع تعاليه عن شركهم، وعدم برهان منهم على ما يدّعون"[٨].**

وتارة يستعمل أداة التشبيه (كأنّ)، ففي تفسير قوله تعالى: **(فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ) (يونس : ٢٣)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ** إلى آخر الآيّة، في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب فقوله: **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ)** الخ، خطاب منه تعالى للنّاس بلا واسطة، وليس من كلام النّبيّ ممّا امره الله سبحانه ان يخاطب به الناس. والدليل على ذلك قوله تعالى **(ثمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ)** إلى آخر الآيّة، فإنه لا يصلح أن يكون من خطاب النّبيّ . والنّكتة في هذا الالتفات هي نظير النّكتة التي قدّمنا ذكرها في قوله تعالى في أوّل الكلام: **(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ) فكأنّه سبحانه يفاجئهم بالاطّلاع عليهم أثناء ما يخاطبهم النّبيّ ، وهم يحسبون أنّ ربّهم غائب عنهم، غافل عن نيّاتهم ومقاصدهم في أعمالهم، فيشرف عليهم، ويمثّل بذلك كونه معهم في جميع أحوالهم، وإحاطته بهم**، ويقول لهم: أنا أقرب إليكم وإلى أعمالكم منكم، فما تعملونه من عمل تريدون به أن تبغوا[٩] علينا وتمكروا بنا إنّما توجد بتقديرنا، وتجري بأيدينا، فكيف يمكنكم أن تبغوا بها علينا ؟ بل هي بغي منكم على أنفسكم فإنّها تبعدكم منا، وتُكتب آثامها في صحائف أعمالكم، فبغيكم على أنفسكم وهو **مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** تتمتّعون به أيامًا قلائل، **ثمّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ** فنخبركم ونوضّح لكم هناك حقائق أعمالكم"[١٠].

٢. يوازن أحيانا بين نصين متجاورين في مقطع قرآنيّ واحد[١١]، مبيّنا دلالة الإحضار في أحدهما موازنة بالتّغييب في الآخر، ففي تفسير قوله سبحانه: **(ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ *كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ ربّهم فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَونَ وَكلّ كَانُواْ ظَالِمِينَ) (الأنفال:٥٤.٥١)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "قوله تعالى: **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ ربّهم فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ)** الخ، كرّر التّنظير السّابق لمشابهة الفرض مع ما تقدّم فقوله: **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** الخ السّابق تنظير لقوله: **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**، كما

أنّ قوله: **كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ** – إلى قوله – **وَكلّ كَانُواْ ظَالِمِينَ** ثانيًا، تنظير لقوله: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً** الخ. غير أنّ التّنظير الثّاني **يشتمل على نوع من الالتفات في قوله: فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ، وقد وقع بحذائه في التّنظير الأوّل: فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ من غير التفات، ولعلّ الوجه فيه أنّ التّنظير الثّاني لمّا كان مسبوقًا بإفادة أنّ الله هو المفيض بالنّعم على عباده، ولا يغيّرها إلاّ عن تغييرهم ما بأنفسهم، وهذا شأن الرّبّ بالنسبة إلى عبيده، اقتضى ذلك أن يعدّ هؤلاء عبيدًا غير جارين على صراط عبوديّة ربّهم، و لذلك غيّر بعض سياق التّنظير، فقال في الثاني: كَذَّبُواْ بِآيَاتِ ربّهم، وقد كان بحذائه في الأوّل قوله: كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللّهِ، ولذلك التفت ههنا من الغيبة إلى التّكلّم مع الغير**[١٢] **فقال: فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ، للدلالة على أنّه سبحانه هو ربّهم، وهو مهلكهم، وقد أخذ المتكلّم مع الغير للدّلالة على عظمة الشّأن وجلالة المقام، وأنّ له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيته.** "[١٣].

٣. يتناول الإحضار الواقع بين غيابين مبينًا حينًا سر الإحضار وسر الرّجوع عنه إلى الغيبة ثانية، ففي تفسير الآيتين: **(وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاء مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ* هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كلّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (يونس: ٢٢.٢١)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "وفي الآيّة التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: **(إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ)**... وهو من عجيب الالتفات الواقع في القرآن، ولعل النّكتة فيه تمثيل معنى قوله: **(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)** في العين، كأنّه تعالى لما قال لنبيّه : **(قُلِ اللّهُ أَسْرَعُ مَكْراً)** أراد ان يوضّحه لهم عيانًا ففاجأهم بتجليه لهم دفعة، فكلّمهم، وأوضح لهم السّبب في كونه أسرع مكرًا، ثمّ حجبهم عن نفسه، فعادوا إلى غيبتهم وعاد الكلام إلى حاله، وخوطب النّبيّ ببقيّة الخطاب: **(هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ)** الخ، وهذا من لطيف الالتفات"[١٤].

٤. يتناول حينًا آخر الإحضار الواقع بين غيابين مبينًا سرّه من دون الوقوف على سرّ الرّجوع عنه إلى الغيبة ثانية ففي قوله تعالى:**(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ**

الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) **(الإسراء: ١)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ:: " وفي الآيّة التفات من الغيبة إلى التّكلّم مع الغير في قوله: **(بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا)** ثمّ رجوع إلى الغيبة السّابقة، والوجه فيه الإشارة إلى أنّ الإسراء وما ترتّب عليه من إراءة الآيات إنّما صدر عن ساحة العظمة والكبرياء، وموطن العزة والجبروت، فعملت فيه السّلطنة العظمى، وتجلّى الله له بآياته الكبرى، ولو قيل: ليريه من آياته أو غير ذلك لفاتت النّكتة"[١٥]

٥. يخلط أحيانا بين التفاتين مختلفين، ففي تفسير قوله سبحانه: **(وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ *وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ)** **(يونس: ٦١.٦٠)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "وقد وقع في قوله: **(إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)** التفات من الغيبة إلى التكلّم مع الغير، والنكتة فيه الإشارة إلى كثرة الشهود فإن لله شهودا على أعمال الناس من الملائكة والناس، والله من ورائهم محيط، والعظماء يتكلّمون عنهم وعن غيرهم للدلالة على أنّ لهم أعوانا وخدمة"[١٦].

يلحظ أنّ العلاّمة الطّباطبائيّ قد أشار إلى الإحضار لكنّه أغفل دلالته ، فلم يشر إلا إلى دلالة استعمال ضمير الجمع بدلا من المفرد.

٦. يتوسّع في استعمال لفظ الالتفات، فيسمي تغيير جهة الخطاب التفاتًا، وهذا عودة بالمصطلح إلى معناه اللغويّ الأصليّ، فيقول في الآيات السّابقة: "وليس ينبغي أن يغفل عن أنّ أصل الالتفات يبدأ من أوّل الآيّة، فإنّ الآيات السابقة كانت تخاطب النّبيّ ، وتأخذ المشركين على الغيبة، وتكلّمهم بوساطته من غير أن تواجهه بشيء من الخطاب يخصّ نفسه، وقد حوّلت هذه الآيّة وجه الكلام إلى النّبيّ بما يخصّ به نفسه فقالت: **(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ)**، ثمّ جمعته والمشركين وغيرهم جميعًا في خطاب واحد فقالت: **(وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً)**، وذلك بضمّهم إلى النّبيّ ، وهم على غيبتهم وبسط الخطاب على الجميع بنوع من التّغليب كما تقول لمخاطبك: أنت وقومك تفعلون كذا وكذا. والدّليل على أنّ هذا الخطاب بنحو الضّمّ والتّغليب قوله بعده: **(وَمَا يَعْزُبُ**

عَن رَّبِّكَ) الخ، فإنّه يكشف عن كون الخطاب معه جاريًا على ما كان. وعلى أيّ حال فالتّحوّل المذكور في خطاب الآيّة للإشارة إلى أنّ السّلطنة والإحاطة التامّة الإلهيّة واقعة على الأعمال شهادة وعلمًا على أتمّ ما يكون من كلّ جهة، من غير أن يستثنى منه نبيّ، ولا مؤمن، ولا مشرك، أو يغفل عن عمل من الأعمال، فلا يتوهمن أحد أنّ الله يخفى عليه شيء من أمره فلا يحاسبه عليه يوم القيامة، وليكن هذا هو ظنّه بربّه يوم القيامة وليأخذ حذره"[١٧].

٧. وقد يرصد الإحضار ظاهرة ملحوظة في كلام الله تعالى في معنى واحد بعينه، كإخراج النبات بالماء، ففي تفسير قوله تعالى: **(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى) (طه: ٥٣)، قال العلاّمة الطّباطبائيّ:** "وقوله: " **فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى** " فيه التفات من الغيبة إلى التّكلّم بالغير، قيل: والوجه فيه ما في هذا الصّنع العجيب وإبداع الصّور المتشتّتة، والأزواج المختلفة، على ما فيها من تنوّع الحياة من ماء واحد، من العظمة والصّنع العظيم لا يصدر إلا من العظيم، والعظماء يتكلّمون عنهم وعن غيرهم من أعوانهم، وقد ورد الالتفات في معنى إخراج النّبات بالماء في مواضع من كلامه تعالى كقوله: **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا) (فاطر: ٢٧)**، وقوله: **(وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ) (النمل:٦٠)** وقوله: **(وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كلّ شَيْءٍ) (الأنعام: ٩٩)** "[١٨].

٨. قد ينفي وقوع الالتفات بالإحضار، لكنّه يبيّن دلالته على تقدير وقوعه، ففي تفسير قوله سبحانه: **(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ* وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ* وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ* وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثمّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ* يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ**

فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ* يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ* وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كلّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ* أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) (لقمان: ٢٠.١١) قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "وعليه فصدر الآيّة من تتمّة كلام النّبيّ ويتّصل بقوله: **(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ)**، ولا التفات في قوله: **(أَلَمْ تَرَوْا)**. وعلى تقدير كونه من كلامه تعالى ففي قوله: **(أَلَمْ تَرَوْا)** التفات من سياق الغيبة الذي في قوله: **(بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)** إلى الخطاب، والالتفات في مثل هذه الموارد يكون لاشتداد وجد المتكلّم وتأكّد غيظه من جهل المخاطبين وتماديهم في غيّهم بحيث[١٩] لا ينفعهم دلالة، ولا ينجح فيهم إشارة، فيواجهون بذكر ما هو بمرئى منهم ومسمع، لعلّهم يتنبّهوا عن نومتهم، وينتزعوا عن غفلتهم"[٢٠].

٩. يذكر العلاّمة الطّباطبائيّ أحيانًا غرضين للإحضار، ففي تفسير قوله تعالى: **(أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ) (الأنعام: ٦)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "**(مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ) التفات من الغيبة إلى الحضور، والوجه فيه ظاهرا رفع اللبس من جهة مرجع الضّمير**، فلولا الالتفات إلى الحضور في قوله: **(مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ)** أوهم السياق رجوعه إلى ما يرجع إليه الضمير في قوله: **(مَكَّنَّاهُمْ)**، وإلا فأصل السياق في مفتتح السورة للغيبة، وقد تقدّم الكلام في الالتفات الواقع في قوله: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ)**"[٢١].

وكان قد قال في قوله تعالى: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثمّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثمّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ) (الأنعام: ٢).**: "**(ثمّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ)** من المريّة بمعنى الشك والريب، **وقد وقع في الآيّة التفات من الغيبة إلى الحضور، وكأن الوجه فيه أن الآيّة الأولى تذكر خلقًا وتدبيرًا عامًا ينتج من ذلك أنّ الكفّار ما كان ينبغي لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، وكان يكفي في ذلك ذكرهم بنحو الغيبة، لكن الآيّة الثّانيّة تذكر الخلق والتّدبير الواقعين**

في الإنسان خاصّة فكان من الحريّ الّذي يهيج المتكلّم المتعجّب اللائم أن يواجههم بالخطاب، ويلومهم بالتجبيه، كأنّه يقول: هذا خلق السماوات والأرض، وجعل الظّلمات والنّور، عذرناكم في الغفلة عن حكمه، لكون ذلك أمرًا عامًا، ربما أمكن الذهول عمّا يقتضيه، فما عذركم أنتم في امترائكم فيه وهو الذي خلقكم وقضى فيكم أجلا وأجل مسمى عنده"[٢٢] ؟.

يبدو أنّ العلاّمة الطّباطبائيّ في هذين النّصين قد أثبت للإحضارغرضين: ظاهر: هو رفع اللبس، وباطن: هو مواجهة المخاطبين بالحقائق الواضحة، والأدلّة الدامغة.

وفيما يأتي أبرز دلالات إحضار الغائب التي ذكرها العلاّمة الطّباطبائيّ:

أولا ـ الحضور لدى المخاطب.

في تفسير قوله تعالى: **(بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ*إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة: ١.٥)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "عرفت أنّ ما سواه تعالى ليس له الا المملوكيّة فقط، وهذه حقيقته، فشيء منه في الحقيقة لا يحجب عنه تعالى، ولا النّظر إليه يجامع الغفلة عنه تعالى، فله تعالى الحضور المطلق، قال سبحانه: **(أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ* أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاء ربّهم أَلَا إِنَّهُ بِكلّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ) (فصلت: ٥٤.٥٣)**، وإذا كان كذلك فحقّ عبادته تعالى أن يكون عن حضور من الجانبين. أمّا من جانب الرّبّ عزّ وجلّ، فأن يعبد عبادة معبود حاضر وهو الموجب للالتفات المأخوذ في قوله تعالى **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** عن الغيبة إلى الحضور. وأمّا من جانب العبد، فأن يكون عبادته عبادة عبد حاضر من غير أن يغيب في عبادته فيكون عبادته صورة فقط من غير معنى، وجسدًا من غير روح، أو يتبعّض فيشتغل بربه وبغيره، أمّا ظاهرًا وباطنًا كالوثنيين في عبادتهم لله ولأصنامهم معًا، أو باطنًا فقط كمن يشتغل في عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات والأغراض، كأن يعبد الله وهمّه في غيره، أو يعبد الله طمعًا في جنة أو خوفًا من نار فإنّ ذلك كلّه من الشّرك في العبادة... فالعبادة إنما تكون عبادة حقيقة، إذا كان[٢٣] على خلوص من العبد، وهو الحضور الذي ذكرناه، وقد ظهر أنّه إنّما يتمّ إذا لم يشتغل بغيره تعالى في عمله فيكون قد أعطاه الشّركة مع الله سبحانه في عبادته ولم يتعلّق قلبه في عبادته رجاءً أو خوفًا هو الغايّة في عبادته، كجنّة أو نار فيكون

عبادته له لا لوجه الله، ولم يشتغل بنفسه فيكون منافيًا لمقام العبوديّة التي لا تلائم الأنيّة والاستكبار، وكأنّ الاتيان بلفظ المتكلّم مع الغير للايماء إلى هذه النّكتة، فإنّ فيه هضمًا للنّفس بإلغاء تعيّنها وشخوصها وحدها المستلزم لنحو من الأنيّة والاستقلال بخلاف إدخالها في الجماعة، وخلطها بسواد النّاس فإنّ فيه إمحاء التعيّن، وإعفاء الأثر، فيؤمن به ذلك"[٢٤].

يلحظ على تناول العلاّمة الطّباطبائيّ لهذا الإحضار أمران:

أحدهما: أنّه لحظ إحضار الغائب في الآيات السّابقة وهو المعبود سبحانه وتعالى، وإحضار من لم يرد له ذكر وهو العابد، وبذلك تحقّق حضور العابد والمعبود في العبادة.

والآخر: اتّساق دلالة إحضار العابد والمعبود مع دلالة الاختصاص في تقديم المفعول به (إياك)، ودلالة الجمع في الفعل (نعبد)، لتكوين نتاج دلاليّ مركّب من تآزر هذه العناصر مجتمعة.

وقد تناول المفسرون هذا الإحضار، "فمنهم من أشار إلى موضعه من دون التّطرّق إلى بيان النّكتة البلاغيّة التي من إجلها تحوّل الإسلوب إلى آخر، ومنهم من ذكر الأمرين، ومنهم من زاد على فائدته فوائد أخرى"[٢٥]

لم يزد الطّبرسيّ من المفسّرين السّتّة[٢٦] على الإشارة إلى وقوع الالتفات في الآية[٢٧]، وكذلك الأندلسي[٢٨].

أمّا الزمخشري فقال: "فإن قلت: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟. قلت: هذا يسمى الالتفات في علم البيان... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السّامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختصّ مواقعه بفوائد. وممّا اختصّ به هذا الموضع أنّه لمّا ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلّق العلم بمعلوم عظيم الشّأن حقيق بالثّناء، وغاية الخضوع والاستعانة في المهمّات. فخوطب ذلك المعلوم المتميّز[٢٩] بتلك الصّفات فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخصّ بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدلّ على أنّ العبادة له لذلك التّميّز[٣٠] الذي لا تحقّ العبادة إلا به"[٣١].

ومنه يتّضح أنّ ما ذكره العلاّمة الطّباطبائيّ هو تفصيل لما ذكره الزّمخشريّ من قبل ، وتشخيص أدقّ، بالاستعانة بنصوص قرآنيّة.

أمّا الرّازيّ فعلّل الإحضار بوجوه: "**الأوّل:** أنّ المصلي كان أجنبيًا عند الشّروع في الصّلاة، فلا جرم أثنى على الله بألفاظ المغايبة إلى قوله: **مالك يوم الدّين،** ثم إنّه تعالى كأنّه يقول له: حمدتني وأقررت بكوني إلهًا ربًا رحمانًا رحيمًا مالكًا ليوم الدّين، فنعم العبد أنت قد رفعنا الحجاب وأبدلنا البعد بالقرب فتكلّم بالمخاطبة وقل: **إياك نعبد. الوجه الثّاني:** أنّ أحسن السّؤال ما وقع على سبيل المشافهة، ألا ترى أنّ الأنبياء لمّا سألوا ربّهم شافهوه بالسّؤال... والسبب فيه أنّ الردّ من الكريم على سبيل المشافهة والمخاطبة بعيد وأيضًا العبادة خدمة، والخدمة في الحضور أولى. **الوجه الثّالث:** أنّ من أوّل السّورة إلى قوله **إياك نعبد** ثناء، والثناء في الغيبة أولى، ومن قوله: **إياك نعبد وإياك نستعين** إلى آخر السّورة دعاء، والدّعاء في الحضور أولى. **الوجه الرّابع:** العبد لما شرع في الصّلاة وقال نويت أن أصلّي تقربًا إلى الله فينوي حصول القربة، ثم إنّه ذكر بعد هذه النيّة أنواعًا من الثناء على الله، فاقتضى كرم الله إجابته في تحصيل تلك القربة، فنقله من مقام الغيبة إلى مقام الحضور، فقال: **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** "[٣٢]

من هذه الوجوه المتعدّدة التي ذكرها الرّازيّ يتّضح أنّ في الإحضار تشريفًا للعابد سواء أكان ثانيًا أو سائلا.

أما الأندلسيّ فلم يزد على عدّ الالتفات من أنواع الفصاحة والبلاغة في الآية[٣٣].

أما الآلوسيّ فقد ذكر أقوال العلماء مسبوقة بـ (قيل)، وأتبعها برأيه، فقال: " **فقيل:** لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز[٣٤] بها عن سائر الذّوات وتعلّق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدلّ على الاختصاص والترقّي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشّهود... **وقيل:** لمّا شرح الله تعالى صدر عبده وأفاض على قلبه وقالبه نور الإيمان والإسلام من عنده ترقّى بذريعة الحمد المستجلب لمزيد النّعم إلى رتبة الإحسان وهو: " أن تعبد الله تعالى كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك " وأيضا حقيقة العبادة انقياد النّفس الأمّارة لأحكام الله تعالى، وصورته وقالبه الإسلام، ومعناه وروحه الإيمان، ونوره الإحسان، وفي (نعبد) والالتفات تتمّ الأمور الثّلاثة، **وأيضًا** لمّا تبيّن أنّه ملك في الأزل ما

في أحايين الأبد علم أنّ الشّاهد والغائب والماضي والمستقبل بالنّسبة إليه على حدّ سواء، فلذلك عدل عن الغيبة إلى الخطاب، **ويحتمل أن يكون السّرّ** أنّ الكلام من أوّل السّورة إلى هنا ثناء، والثّناء في الغيبة أولى، ومن هنا إلى الآخر دعاء وهو في الحضور أولى... **وقيل::** إنّه لمّا كان الحمد لا يتفاوت غيبة وحضورًا بل هو مع ملاحظة الغيبة أدخل وأتمّ، وكانت العبادة إنّما يستحقّها الحاضر الذي لا يغيب... عبّر سبحانه وتعالى عن الحمد بطريق الغيبة، وعنها بطريق الخطاب، إعطاءً لكلّ منهما ما يليق من النّسق المستطاب، **وأيضًا:** من تشبّه بقوم فهو منهم، فالعابد لمّا رام ذلك سلك مسلك القوم في الذّكر... عسى أن يصير محسوبًا في عدادهم... **وأيضًا:** فيه إشارة إلى أنّ من لزم جادّة الأدب والانكسار، ورأى نفسه بعيدًا عن ساحة القرب لكمال الاحتقار، فهو حقيق أن تدركه رحمة إلهيّة... فيصير واطئًا على بساط الاقتراب فائزًا بعزّ الحضور وسعادة الخطاب. **وأيضًا:** إنّه لمّا لم يكن في الحمد مزيد كلفة بخلاف العبادة فخطبها عظيم ومن دأب المحبّ تحمّل المشاقّ العظيمة في حضور المحبوب قرن سبحانه العبادة بما يشعر بحضوره ليأتي بها العابد خالية عن الكلال عارية عن الفتور والملال... **وأيضًا:** إنّ الحمد ليس إلا إظهار صفات الكمال على الغير فما دام للأغيار وجود في نظر السّالك فهو يواجههم بإظهار مزايا المحبوب عليهم، ويخاطبهم بذكر مآثره الجميلة لديهم، وأمّا إذا آل أمره بملازمة الأذكار إلى ارتفاع الحجب والأستار، واضمحلال جميع الأغيار، لم يبق في نظره سوى المعبود الحقّ، والجمال المطلق... فبالضّرورة لا يصير توجيه الخطاب إلاّ إليه، ولا يمكن إظهار السّرّ إلاّ لديه فينعطف عنان لسانه إلى جنابه ويصير كلامه منحصرًا في خطابه،... **وعندي وهو من نسائم الأسحار: أنّ الله سبحانه بعد أن ذكر يوم الدّين وهو يوم القيامة التفت إلى الخطاب للإشارة إلى أنّه إذا قامت القيامة على ساق، وكان إلى ربك يومئذ المساق، هنالك يفوز المؤمن بلذة الحضور** "[٣٥] ، وفي رأيه الذي وصفه بأنّه من نسائم الأسحار نظر، لأنّ السّورة الشّريفة تربية للعبد بأدب العبوديّة الخالصة لله سبحانه مقرونة بالاستعانة به في الدنيا، دار العمل والابتلاء، ولا حديث فيها لثواب المؤمنين بالحضور بين يديه سبحانه في الآخرة.

أما الطّاهر بن عاشور فقال: " وما هنا التفاتٌ بديع فإنّ الحامد لمّا حمد الله تعالى، ووصفه بعظيم الصّفات، بلغت به الفكرة منتهاهَا فتخيّل نفسه في حضرة الرّبوبيّة فخاطب ربّه بالإقبال ، ... ومما يزيد الالتفات وقعًا في الآية أنّه تخلّص من الثّناء إلى الدّعاء، ولا شكّ أنّ[٣٦] الدّعاء يقتضي الخطاب، فكان قوله : **(إِيَّاكَ نَعْبُدُ)** تخلصًا يجيء بعده : **(اهدنا الصراط)**"[٣٧] . وليس في كلامه زيادة على ما أورده من سبقه من المفسّرين.

أمّا السّيّد الخوئيّ فقال: " والسرّ في ذلك أحد أمرين:

الأوّل: أنّ سابق هذه الآية الكريمة قد دلّ على أنّ الله سبحانه هو المالك لجميع الموجودات، والمربّي لها، والقائم بشؤونها، وهذا يقتضي أن تكون الأشياء كلّها حاضرة لديه تعالى، وأن يكون سبحانه محيطًا بالعباد وبأعمالهم ليجازيهم يوم الدّين بالطّاعة أو بالمعصية، واقتضى ذلك أن يظهر العبد حضوره بين يدي ربّه ويخاطبه.

الثّاني: أنّ حقيقة العبادة خضوع العبد لربّه بما أنّه ربّه والقائم بأمره والرّبوبيّة تقتضي حضور الرّبّ لتربية مربوبه، وتدبير شؤونه. وكذلك الحال في الاستعانة فإنّ حاجة الإنسان إلى إعانة ربّه وعدم استقلاله عنه في عبادته تقتضي حضور المعبود لتتحقّق منه الإعانة"[٣٨].

اللافت للنّظر في كلام السّيّد الخوئيّ هو قوله: والسرّ في ذلك أحد أمرين، ولا أدري ما المانع من الجمع بينهما، وهما من التقارب بما لا يخفى على المتدبّر البصير؟ فكلّ شيء حاضر عنده سبحانه، حضور المملوك عند مالكه، وحضور المربّى عند مربّيه.

أما السّيد عبد الأعلى السّبزواريّ فقال معللا: "بعد إقرار العبد بالألوهيّة، والاعتراف بالرّبوبيّة، وأنّه مالك يوم الجزاء، صار لائقًا بالمخاطبة الحضوريّة معه تعالى، فارتقى العبد من الغيبة إلى الحضور، لارتقاء مقام قلبه عن الغفلة إلى التوجّه والحضور."[٣٩]، وفي كلامه ما لايخفى من اللمحة العرفانيّة الّتي تسم تفسيره.

ثانيًا- تأكيد الحكم

في تفسير قوله تعالى: **(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً**

فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيماً* إِن تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيماً* لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاء أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كلّ شَيْءٍ شَهِيداً) **(الأحزاب: ٥٣.٥٥)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "**(واتقين الله إِنَّ الله كان على كلّ شيء شهيدا)** فيه تأكيد الحكم، وخاصّة من جهة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في **(واتقين الله)**"[٤٠] .

لم يقف على دلالة الالتفات في الآية الكريمة من المفسّرين السّتّة إلاّ الآلوسيّ والطّاهر بن عاشور[٤١] اللّذان اختلفا في دلالته، فقال الآلوسيّ: " في نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب فضل تشديد في طلب التّقوى منهن"[٤٢].

أما الطّاهر بن عاشور فقال: "والتفت من الغيبة إلى خطابهن في قوله: **واتقين الله** لتشريف نساء النّبيّ بتوجيه الخطاب الإلهيّ إليهن"[٤٣] .

يبدو للباحث رجحان ما ذهب إليه العلاّمة الطّباطبائيّ والآلوسيّ لأنّ المقام مقام حثّ وتشريع لا مقام ثناء وتشريف ولا سيّما أنّ الآية ختمت بقوله تعالى: **إِنَّ الله كان على كلّ شيء شهيدًا.**

ثالثًا – تسجيل اللّوم والعتاب

في تفسير قوله تعالى: **(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ)** (الحج: ٨ . ١٠)، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: " **ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**" إشارة إلى ما تقدّم في الآيّة السّابقة من الإيعاد بالخزي والعذاب، ... وفي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب لتسجيل اللّوم والعتاب"[٤٤].

لم يشر إلى دلالة هذا الإحضار من المفسّرين السّتّة[٤٥] إلاّ الآلوسيّ الذي قال: "التفات لتأكيد الوعيد، وتشهيد التّهديد"[٤٦] .

ومن الغريب حقًا أن لايقف هؤلاء المفسّرون على دلالة هذا الإحضار، وهو ظاهر بالمعنى الذي أورده العلاّمة.

رابعًا . إظهار القرب من المخاطب

في تفسير قوله تعالى: **(وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ) (ص: ٥٢-٥٣)**. قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "قوله تعالى: " **هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ** " الإشارة إلى ما ذكر من الجنّة ونعيمها، والخطاب للمتّقين، ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب، والنّكتة فيه: إظهار القرب منهم، والإشراف عليهم، ليكمل نعمهم الصّوريّة بهذه النّعمة المعنويّة"[٤٧].

اكتفى الطّبرسيّ والأندلسيّ والآلوسيّ بالإشارة إلى وقوعه فقط[٤٨]، في حين لم يشر إلى وقوعه الزّمخشري والرّازيّ[٤٩]، ووقف على دلالته الطّاهر بن عاشور، الّذي قال: "التفات من الغيبة إلى الخطاب لتشريف المتّقين بعزّ الحضور لخطاب الله تعالى"[٥٠]

خامسًا- المشافهة بالإنذار

في تفسير قوله تعالى: **(وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً* إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً* يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلاً* إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً* فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً) (المزّمّل: ١٧.١١)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: " "قوله تعالى: **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً** " إنذار للمكذّبين أولي النّعمة من قومه ، بعد ما أوعد مطلق المكذّبين أولي النّعمة بما أعدّ لهم من العذاب يوم القيامة بقياس حالهم إلى حال فرعون المستكبر على الله ورسوله، المستذلّ لرسول الله ومن آمن معه من قومه، ثمّ قرع أسماعهم بما انتهى إليه أمر فرعون من أخذ الله له أخذًا وبيلا، فليتّعظوا وليأخذوا حذرهم. وفي الآيّة التفات عن الغيبة إلى الخطاب كأنّ المتكلّم لمّا أوعدهم بالعذاب على الغيبة هاج به الوجد على أولئك المكذّبين بما يلقون أنفسهم بأيديهم إلى الهلاك الأبديّ لسفاهة رأيهم فشافههم بالإنذار ليرتفع عن أنفسهم أيّ شكّ وترديد، وتتمّ عليهم الحجّة ولعلّهم يتّقون، ولذا

عقّب قياسهم إلى فرعون، وقياس النّبيّ إلى موسى υ ، والإشارة إلى عقابه أمر فرعون، بقوله " **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً** " الخ"[٥١].

لم يذكر هذا الالتفات من المفسّرين السّتّة إلاّ الآلوسيّ الذي نفى وقوعه، فقال: "وذهب جمع إلى أنّ الخطاب في **إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ** عامّ للأسود والأحمر، فالظّاهر أنّه ليس من الالتفات في شيء"[٥٢]

يبدو للباحث عدم ترجيح ما ذهب إليه العلاّمة الطّباطبائيّ لأنّ قوله سبحانه **فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً** واضح الدّلالة على خطاب عامّة الخلق لا المكذّبين فقط، بدليل الجملة الشرطية **إِن كَفَرْتُمْ**، وعليه فلا التفات لاختلاف مرجعيّة الضّمير.

سادسًا – تشديد التّقريع

في تفسير قوله تعالى: **(فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ* كلّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ) (الفجر: ١٥.١٧)**، قال العلاّمة الطّباطبائيّ: "وفي قوله: **بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ** الخ إضراب يؤكّد الرّدع بذكر بعض التّنعّم الذي لا يجامع الكرامة البتّة، كعدم إكرامهم اليتيم، بأكل تراثه ومنعه منه، وعدم التّحريض على إطعام المسكين، حبًا للمال، فالفطرة الإنسانيّة لا يرتاب في أن لا كرامة في غنى هذا شأنه. وفي الإضراب مضافًا إلى[٥٣] أصل الرّدع تقريع، ولتشديد هذا التّقريع وقع الالتفات من الغيبة إلى الخطاب"[٥٤].

لم يشر إلى دلالة هذا الإحضار الطّبرسيّ والزّمخشريّ والأندلسيّ[٥٥].

أما الرّازيّ فنفاه من دون التّصريح بذلك، فقال: " ومن قرأ بالتاء فالتّقدير: قل لهم يا محمد ذلك"[٥٦] ، وعليه فلا التفات.

أمّا الآلوسيّ فقال: "والالتفات إلى الخطاب لتشديد التّقريع وتأكيد التّشنيع وقيل: هو بتقدير: قل، فلا التفات، نعم فيه من الإشارة إلى تنقيصهم ما فيه"[٥٧] .

أما الطّاهر بن عاشور فقال: " وقرأ الجمهور: (لا تُكرمون، ولا تَحضون، وتأكلون، وتُحبون) بالمثناة الفوقية على الخطاب بطريقة الالتفات من الغيبة في قوله: **فَأَمَّا الإنسان إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ** الآيات، لقصد مواجهتهم بالتّوبيخ، وهو بالمواجهة أوقع منه بالغيبة"[٥٨]

يبدو للباحث ضعف ما ذهب إليه القائلون بتقدير القول، ونفي الالتفات، لأنّ عدم التّقدير خير من التّقدير، ونظائر هذا كثير في القرآن الكريم، والسّياق سياق لوم وتوبيخ.
ويبدو أنّ هذه الدّلالة شائعة في هذا الإحضار فقد ذكرها العلاّمة الطّباطبائيّ في تفسير آيات أخرى من القرآن الكريم[٥٩]

الهوامش :

[١] ينظر مادة (لفت) في: كتاب العين: ٨ / ١٢١، والصحاح ٢٦٤/١، ومعجم مقاييس اللغة ٥ / ٢٥٨، و لسان العرب ٢ / ٨٤، و تاج العروس ٣ / ١٢٦
[٢] ينظر: كتاب العين: ٨ / ١٢١
[٣] معجم مقاييس اللغة (لفت): ٥ / ٢٥٨
[٤] ينظر: المثل السائر ١٦٩.١٦٥
[٥] الطراز ١٣٢/٢
[٦] ينظر: البلاغة العربية ٢١٢
[٧] الصواب: فيما يتعلق
[٨] الميزان ١٥ / ٣٧٩ – ٣٨٠
[٩] في الأصل (تبتغوا)، ويبدو انه خطأ مطبعي
[١٠] الميزان ١٠ / ٣٦ – ٣٧
[١١] أعني بـ (المقطع القرآني) آية أو أكثر إذ دأب العلاّمة في تفسيره في تقسيم السورة الواحدة على مقاطع قد تطول وقد تقصر
[١٢] لايجوز دخول (ال) على (غير)، وهذا كثير في كلامه
[١٣] الميزان ٩ / ١٠٢
[١٤] الميزان ٣٦/١٠
[١٥] الميزان ٧/١٣
[١٦] الميزان ١٠ / ٨٧
[١٧] الميزان ١٠ / ٨٧ – ٨٨
[١٨] الميزان ١٤ / ١٧١ – ١٧٢
[١٩] لايجوز دخول الباء الجارة على حيث
[٢٠] الميزان ١٦ / ٢٢٨
[٢١] الميزان ٧ / ١٨
[٢٢] الميزان ٧ / ١١
[٢٣] يبدو أنه خطأ طباعي، والصواب: كانت
[٢٤] الميزان ١ / ٢٥ – ٢٦
[٢٥] الالتفات (أطروحة دكتوراه) ٧٦
[٢٦] أريد بهم: الطّبرسيّ، والزمخشري، والرّازيّ، والأندلسي، والآلوسي، والطاهر بن عاشور
[٢٧] ينظر: مجمع البيان ٦٥/١

[٢٨] البحر المحيط ١/ ١٥٣
[٢٩] الصواب: الممتاز
[٣٠] الصّواب: الامتياز
[٣١] الكشّاف ٦٥.٦٤/١
[٣٢] التّفسير الكبير ٢٥٢/١
[٣٣] ينظر: البحر المحيط ١/ ١٥٣.١٥٢
[٣٤] الصّواب: امتاز
[٣٥] روح المعاني ٩٠.٨٩
[٣٦] الصّواب: في أنّ
[٣٧] التحرير والتنوير ١٧٩/١
[٣٨] البيان ٤٥٩
[٣٩] مزاهب الرحمن ٤٤/١
[٤٠] الميزان ١٦ / ٣٣٨
[٤١] ينظر: مجمع البيان ١٧٨/٨، والكشّاف ٢٧٢/٣، والتّفسير الكبير٢٥/ ٢٢٥ ، والبحر المحيط ٢٣٩/٧
[٤٢] روح المعاني ٢٢ / ٧٥
[٤٣] التحرير والتنوير ٩٦/٢٢
[٤٤] الميزان ١٤ / ٣٥٠
[٤٥] ينظر: : مجمع البيان ١٣٠/٧، والكشّاف ٧/٣، والتّفسير الكبير٢٣/ ١١ ، والبحر المحيط ٣٢٨/٦، والتحرير والتنوير ٢١٠/١٧
[٤٦] روح المعاني ١٢٣/١٧
[٤٧] الميزان ١٧ / ٢١٨ – ٢١٩
[٤٨] ينظر: مجمع البيان ٣٦٨/٨، والبحر المحيط ٣٨٦/٧، وروح المعاني ٢١٤/٢٣،
[٤٩] ينظر: الكشّاف ٢٧٩/٣، والتّفسير الكبير ٢١٩/٢٦
[٥٠] التحرير والتنوير ٢٨٤/٢٣
[٥١] الميزان ٢٠ / ٦٨
[٥٢] روح المعاني ٢٩ / ١٠٩
[٥٣] الصواب: فضلا عن
[٥٤] الميزان ٢٠ / ٢٨٣
[٥٥] ينظر: مجمع البيان٣٥٢/١٠، والكشّاف ٢٥٢/٤، والبحر المحيط ٤٦٦/٨
[٥٦] التّفسير الكبير ٣١ / ١٧٢
[٥٧] روح المعاني ٣٠ / ١٢٧
[٥٨] التحرير والتنوير ٣٣٣/٣٠
[٥٩] ينظر: الميزان ١٥ / ٣٧٩ – ٣٨٠، و٨١/١٩.

المصادر

- الالتفات في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه تقدّم بها صدام حسين العلواني إلى مجلس كلية الآداب في جامعة بغداد، بإشراف الأستاذ الدكتور محمد ضاري حمادي، ١٤٢٥هـ ، ٢٠٠٤م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسيّ (ت ٧٤٥هـ)، تقديم: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوض، شارك في التحقيق: الدّكتور زكريا عبد المجيد النّوقيّ، والدّكتور أحمد النّجوليّ الجمل، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط ١، ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.
- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمّد بن عبد الله الزّركشيّ (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاءه، القاهرة، ط ١، ١٣٧٦هـ . ١٩٥٧م.
- البلاغة العربيّة قراءة أخرى، للدّكتور محمّد عبد المطّلب، الشّركة المصريّة العالميّة للنّشر، ط ١، القاهرة، ١٩٩٧م.
- البيان في تفسير القرآن، للّسيّد الخوئيّ (ت ١٤١١هـ)، دار الزهراء للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، بيروت – لبنان – ١٩٧٥ م

تاج العروس من جواهر القاموس، للسيّد محمّد مرتضى الحسينيّ الزّبيديّ (ت ١٢٠٥هـ)، تحقيق:علي شيري، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ . ١٩٩٤م.

- التّحرير والتّنوير، لمحمّد الطّاهر بن عاشور، الدّار التّونسيّة للنّشر ١٩٨٤م.
- التفسير الكبير، محمّد بن أبي بكر الرّازيّ (ت٦٠٦هـ)، الطبعة الثالثة، بلا محقّق ولا مطبعة، د.ت.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين الآلوسيّ (ت ١٢٧٠هـ)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ . ١٩٧٨م.

- الصّحاح (تاج اللغة وصحاح العربيّة)، لإسماعيل بن حماد الجوهريّ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، القاهرة، ١٣٧٦هـ ١٩٥٦م. ط ٤، ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي(ت ١٧٠هـ)، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، و الدكتور إبراهيم السامرائي، الناشر:مؤسسة دار الهجرة، مطبعة الصدر ط ٢، ١٤١٠هـ،
- الكشّاف عن حقائق التّنزيل وعيون الأقاويل، جار الله الزّمخشريّ (ت٥٣٨هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ وأولاده بمصر، عباس ومحمّد محمود الحلبي وشركاهم، ١٣٨٥هـ. ١٩٦٦م
- لسان العرب، لأبى الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم ابن منظور الإفريقيّ المصريّ (ت٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة قم المقدّسة، ١٤٠٥هـ.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،لضياء الدين ابن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي – بدوي طبانة
- مجمع البيان، لأبي علي الفضل بن الحسن الطّبرسيّ (ت٥٤٨هـ)، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين الأخصائيّين، تقديم: السّيّد محسن الأمين العاملي، ط ١، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م.
- معجم مقاييس اللغة،لأبي الحسين أحمد بن فارس زكريا (ت ٣٩٥ هـ)، تحقيق:عبد السلام محمد هارون،الناشر: مكتبة الإعلام الإسلامي، مطبعة مكتبة الإعلام الإسلامي، ط ٥، ١٤٠٤ هـ.
- مواهب الرّحمن في تفسير القرآن، للسيد عبد الأعلى السّبزواريّ، دار التّفسير، قم المقدّسة، ط ٢، ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٧م.
- الميزان، للسيد محمّد حسين الطّباطبائيّ (ت ١٤١٢هـ)، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، (د. ت).